تراث الإنسانية

رحلة ابن بطوطة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

د . محمد محمود الصبان

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

رحلة ابن بطوطة

رحلة ابن بطوطة

د. محمد محمود الصبان



مهرجان القراءة للجميع ٩٤

مكتبة الأسرة

(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

الانجاز الطباعى والفنى

محمود الهندى

مراد نسيم

احمد صليحة

المشرف العام

د . سمير سرحان

رحلة ابن بطوطة

بقلم

الدكتور محمد محمود الصياد

ـ ١ ـ

كان المسلمون فى العصور الوسطى أكثر أهل الأرض جوباً للآفاق وتقلباً فى البلاد.

كان دينهم قد أنتشر فى سرعة لم ينتشر بها دين من قبل ولا من بعد، فشرق حتى بلغ الصين وغرب حتى انتهى إلى شواطىء بحر الظلمات.

وكان هذا الدين دين أخوة صادقة، يجعل من المسلم أخاً للمسلم مهما أختلف العرق، وتباين اللون، وتباعدت الأوطان.

ولقد فقدت الدولة الإسلامية وحدتها السياسية ولما يمض على قيامها قرنان من الزمان، ولكن بقيت روابط

الدين واللغة والثقافة الجديدة توحد بين المسلمين في مختلف الأقطار، فظلوا أمة واحدة وإن حكمتها عديد من الحكومات.

لقد كانت الروابط التي خلقها الإسلام وحضارته أقوى من الشعوبية ومن كل نزعة إقليمية، ولم تستطع تلك النزعات التي غرست بذورها الأسر الحاكمة خدمة لمصالحها الخاصة، مستخدمة الوسائل المختلفة من ترغيب وترهيب، أن تنزع من القلوب المؤمنة ما فطرت عليه من أخوة شاملة دعت إليها الشريعة السمحاء.

وكان الحج من أهم العوامل التي دفعت بالمسلمين إلى الرحلة والانتقال، فالحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، وهو فريضة واجبة الأداء على المسلم ما لم يعقه عائق من ضعف صحة أو قلة مال، وكان المسلمون في مختلف أنحاء الأرض شعوباً وحكاماً ييسرون على إخوانهم الحجاج رحلتهم الطويلة لزيارة بيت الله، وكم من مثر أوقف طائل الأموال لخدمة الحجاج، وكم من حاكم أقام على الطريق الكثير من المنشآت لخدمة الحجاج، وكم من سلطان رصد من جنده من يقوم على تأمين طريق الحج وحماية سالكيه.

وكان الحجاج يقصدون بيت الله من كل فج عميق رجالا وعلى كل ضامر، وكانوا يتجمعون فى قوافل تبدأ صغيرة ثم تنمو كلما تقدم بها الطريق بما ينضم إليها من وفود، حتى يصبح فى النهاية للعراق حجيجه وللشام حجيجه ولأفريقية حاجها. وتسير القافلة فى ألفة ونظام وتعاطف شامل، تحميها جنود الحكام، ويرحب بها سكان المدن والقرى فى معظم الأحيان، ويزداد الترحيب كلما زاد فى القافلة عدد العلماء ورجال الدين.

ولم يكن الحج وحده هو الذى يدفع المسلمين إلى التجوال، بل كانت التجارة كذلك من أهم بواعث الرحلات، إذ بلغت تجارة أية أمة قبل عصر الاكتشافات الجغرافية الحديثة، وكانت أساطيلهم التجارية تجوب كل البحار المعروفة آن ذاك، وكانت طرق قوافلهم تربط بين أنحاء العالم المعروف، ولم تقتصر تجارتهم على ديار الإسلام بل تجاوزتها إلى كل ركن معمور. وكان لديهم ما يتجرون فيه، إذ كانت بلادهم تنتج الغلات المتنوعة، وكانوا قد أصبحوا سادة الصناعة بمقاييس تلك العصور، ومن ثم راحوا يحملون إنتاجهم من الفاكهة والتوابل والعطور والمنسوجات والسجاد والزجاج إلى

البلاد الأوربية، وإلى جنوبى الروسيا، حيث يعودون من أسواقها بالجلود والفراء والصوف والدروع والسيوف، فجمع تجارهم من وراء ذلك طائل الثروات.

وكان طلب العلم سبباً آخر لرحلة كثير من المسلمين؛ وماذا ننتظر من قوم كان أول ماأوحى به إلى نبيهم «اقرأ باسم ربك الذى خلق»؟ وماذا نتوقع من ناس يحث نبيهم على طلب العلم ولو فى الصين؟ وكان العالم الإسلامى غنياً بعلمائه الأعلام الذين ضربوا بسهم وافر فى مختلف الفنون، وكان من معايير الحكم على مستوى صاحب العلم عدد من لقى من العلماء وتتلمذ عليهم، وياله من معيار صادق الدلالة.

وفى ديار واسعة الأرجاء، مزدهرة الحضارة كديار المسلمين، كان لابد من اتصال أمراء الأقاليم المختلفة بعضهم ببعض، ولابد من اتصالهم بغيرهم من حكام غير المسلمين، ومن ثم كثرت السفارات وتعدد السفراء. وحسبنا أن نشير إلى رحلة يحيى بن عبد الحكم البكرى المشهور لجماله بالغزال إلى الدنيمراك مبعوثاً من قبل أمير قرطبة عبد الرحمن الثانى لمفاوضة النورمان، ورحلة أحمد بن فضلان التى زار فيها بلاد البلغار سفيراً للخليفة العباسى المقتدر بالله.

لهذه الأسباب ولغيرها كثرت أسفار المسلمين وتعددت رحلاتهم. وقد وصلتنا أخبار بعض رحالتهم عن طريق الرواة، ومن هؤلاء سلام الترجمان وابن وهب القرشي. ولكن معظمهم ترك لنا مذكرات عن رحلاته لا تزال تقرأ حتى اليوم للعلم وللمتعة معاً. ومنهم ابن فضلان، والمسعودي، وناصرى خسرو، والإدريسي، وابن جبير، والهروي، وأسامه بن منقذ، وعبد اللطيف البغدادي وغيرهم كثير.

وثمة واحد من الرحالة لا ينتمي إلى هذا الفريق أو ذاك، فهو لم تتحدث عن أسفاره الرواة، ولم يكتب هو بنفسه مذكرات عن أخباره، وإنما أملاها على كاتب أمره أحد السلاطين «أن يضم أطراف ما أملاه (الشيخ) من ذلك، فى تصنيف يكون على فوائده مشتملا، ولنيل مقاصده مكملا، متوخياً تنقيح الكلام وتهذيبه، معتمداً إيضاحه وتقريبه، ليقع الاستمتاع بتلك الطرف، ويعظم الانتفاع بدررها عند تجريده من الصدف» فصدع الكاتب بالأمر، وراح يسجل أخبار رحالة أنفق من عمره ثمانية وعشرين عاماً لا يقر له قرار، وهو يذرع الأرض بالطول والعرض حتى قطع فى أسفاره ما يربو على ١٢٠ ألف كتاب كيلو متر أو نحو ثلاثة أمثال محيط

الكرة التى تعيش عليها. وهكذا دون محمد بن جزى الكلبى، بأمر السلطان أبى عنان المرينى، رحلة ابن بطوطة شيخ الرحالة المسلمين فانتهى من كتابتها فى شهر صفر عام سبعة وخمسين وسبعمائة هجرية (١٣٥٦م) وسماها «تحفة النظار، فى غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار».

ـ ٢ ـ

ومن عجب أن يكون ابن بطوطة هو شيخ الجوابين ثم تخلو المصادر الأصيلة من ذكره، فلا نجد له فى كتب التراجم سيرة، ولا يتحدث عنه معاصروه إلا بما لا يروى غلة كما فعل «ابن خلدون»، وهو من المؤلفين العرب القلائل الذين ذكروا اسم ابن بطوطة مع أنه كان قد التقى به وسمع بأخبار رحلاته. ويحاول الباحث أن يترجم للرجل ترجمة تليق به فلا يجد تحت يديه من مصادر سوى رحلته، وهى وحدها لا تكفى لكتابة سيرة وتصنيف تاريخ.

ورحالتنا هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم، اللواتى قبيلة، الطنجى مولداً. وكنيته أبو عبد الله، ولقبه شمس الدين، وأشتهر بابن بطوطة. وقبيلة

لواتة التى ينتمى إليها قبيلة بربرية كبيرة تعرف على فى لسان البربر باسم «ايلواتن»، وكانت بطونها تنتشر على طول الساحل الأفريقى من المحيط حتى ليبيا، وكان مولد أبى عبد الله فى مدينة طنجة ثغر المغرب على مدخل بحر الروم فى يوم الاثنين السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبعمائة (٢٤ فبراير سنة ١٣٠٤ م) هكذا حدث هو عن نفسه كاتب رحلته ابن جزى يوم التقى به فى مدينة غرناطة قبل أن يملى عليه رحلته بسنوات.

ولانعرف شيئاً عن طفولة الرجل وصباه، ولا علم لنا بسيرة حياته إلا فى حدود ما يمكن أن نستخلصه من إشارات عابرات ترد على لسانه أحياناً وهو يروى قصة رحلاته، ولكن يبدو أنه كان عالماً وفقيهاً فهذا هو ما ينتظر من رجل ولد فى أسرة عرف عنها الاشتغال بالعلم؛ ثم يؤكده أن يعرف الحجاج له فضله فيقدمونه عليهم قاضياً وهو فى تونس، ثم يعمل بعد ذلك فى القضاء فى جزائر «ذيبة المهل» التى نعرفها فى وقتنا الحاضر باسم جزائر «ملديف»، وأغلب الظن أنه كان على مذهب مالك فهو المذهب الذى ساد فى المغرب العربى خلال العصور.

وكـان ابن بطوطة رقيق المشـاعـر سـريـع التـأثر، وتفيض صفـحات قصته بكثير من المواقف العاطفية، فهو حين يترك والديه «تحمل لبعدهما وصبا، كما لقى من الفراق نصبا». وهو عندما وصل مدينة تونس، وبرز أهلها للقاء بعض كبار الشخصيات فى القافلة التى لحق بها «وأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال، ولم يسلم عليه أحد لعدم معرفته بهم، وجد من ذلك فى النفس ما لم يملك معه سوابق العبرة، وأشـتد بكاؤه حتى شعر بحاله بعض الحجاج فأقبل عليه بالسلام والإيناس...» ولما عاد من رحلته الأولى وعلم أن والدته قد مـاتت حزن لذلك حزناً شديداً قطعه عن كل شىء وسارع إلى زيارها قبرها فى طنجة، ويظهر أن وقع المصيبة كان شديداً على نفسه فمرض ثلاثة أشهر قضاها فى سبته.

وابن بطوطة متعصب لوطنه الصغير، وكان المنتظر من رجل قضى أطيب سنى العمر متنقلا من بلد إلى بلد أن تكون الدنيا كلها وطنه، ولا ندرى هل كان الرجل يؤمن حقيقة بما يقول أنه أراد أن يداهن السلطان فراح يقص على مسامعه أن بلاده «الشريفة» هى أحسن البلدان «لأن الفواكه بها متيسرة، والمياه والأقوات غير متعذرة».

ولكن الرجل على فضله وعلمه، يتميز بشيء غير قليل من البساطة، ربما تصل إلى السذاجة في بعض الأحيان، فهو يصدق كثيراً من الأساطير التى لا يقبلها عقل، ويعتقد في صحة كرامات الدراويش التى رويت له، أو التى جسمها له الوهم والخداع النفسى فراح يرويها على أنها حقائق شاهدها رأى العيان. وربما كان مرد ذلك إلى أن الرجل بحكم نشأته الدينية كان تقياً ورعاً، يعظم الأتقياء والصالحين، ويزور قبورهم للتبرك بهم، وما سمع عن ولى من الأولياء إلا وهرع إلى لقائه، يزوره ويسأله صالح الدعوات. وقد كانت هذه هى روح العصر فلا عجب أن يأخذ بها ابن بطوطه وأن يفعل ما يفعل مواطنوه.

وأغلب الظن أن ابن بطوطة لم يكن من أصحاب الأقلام، فهو لم يترك أى إنتاج أدبى، ولم يرد فى رحلته أو غيرها من المصادر أى ذكر لمؤلفات منسوبة إليه، ولكنه حاول أن ينظم الشعر، وما كنا لنعرف ذلك لولا أن أشار إليه هو نفسه، وكل ما بين أيدينا من شعره سبعة أبيات هى مطلع قصيدة مدح بها السلطان محمد بن تغلق ملك الهند والسند وكان قد لجأ إليه يستعين به على قضاء بعض ديونه فأنشده:

إليك أمير المؤمنين المبجلا

أتينا نجد السير نحوك فى الفلا

فجئت محلا من علائك زائرا

ومغناك كهف للزيارة أهلا

فلو أن فوق الشمس للمجد رتبة

لكنت لأعلاها إماما مؤهلا

فأنت الإمام الماجد الأوحد الذى

سجاياه حتما أن يقول ويفعلا

ولى حاجة من فيض جودك أرتجى

قضاها وقصدى عند مجدك سهلا

أأذكرها أم قد كفانى حياؤكم

فإن حياكم ذكره كان أجملا

فعجل لمن وانى محلك زائراً

قضا دينه؛ إن الغريم تعجلا

وهذا نظم لا يرقى إلى مستوى الشعر، ولكن السلطان الذى كان يجهل العربية طرب له وهو يستمع

إلى ترجمته، وأغلب الظن أن المترجم هو صاحب الفضل الأول في طرب السلطان!

ولو كان ابن بطوطة من الأدباء لكتب على الأقل مذكرات منظمة عن رحلته، ولما أمر السلطان أبو عنان المريني كاتبه محمد بن جزي الكلبي أن يكتب ما يمليه عليه الشيخ ابن بطوطة من عجائب رحلته، بل كان الأقرب إلى المنطق أن يكلفه هو بكتابتها. ويشبه موقف ابن بطوطة موقف معاصره الرحالة البندقي ماركو بولو فهو بعد أن عاد من رحلاته الطويلة في الشرق راح يحدث بأخبارها التي كان يستمع إليها القوم كأساطير وكان من الممكن أن تنسى هذه الأخبار مع الزمن لولا أن صادف وهو بسجنه في جنوة كاتباً ذا مواهب أدبية أخذ يسجل رحلة ماركو بولو بإملائه؛ ولو أن ابن بطوطة لم يحظ بما حظي به في أبي عنان حتى أمر كاتبه بتسجيل أخبار الرحلة لكان من المحتمل الذي يحتله الآن في تاريخ الرحلات.

لقد طوف ابن بطوطة بكل أرجاء العالم الإسلامي في أفريقية وآسيا وأوربا، وتعداه إلى غيره من بلاد المسيحيين والوثنيين فزار بلاد الروم والصين والهند

وسيلان حتى أصبح كما وصفه أبن جزى «رحال العصر، ومن قال رحال هذه الملة، لم يبعد».

وكان لا يزال فى تجواله حين جاءه فى مدينة «تكدا» أكبر مدن الطوارق فى السودان الغربى، كتاب من السلطان أبى عنان يأمره بالوصول إلى حضرته العلية، فامتثل للأمر، وخرج من تكدا يوم الخميس الحادى عشر لشعبان سنة أربع وخمسين وسبعمائة (١١سبتمبر سنة ١٣٥٣) فوصل فاس فى أواخر ذى الحجة (يناير ١٣٥٤). وكان قد نوف على الحادية والخمسين من العمر؛ وبقى بها حتى إختاره الله إلى جواره فى سنة ٧٧٩هـ (١٣٧٧م) وله من العمر نحو ٧٤ سنة.

-٣-

وكما أغفل التاريخ إسم إبن بطوطة الشاب، فقد تجاهل كذلك ذكرابن بطوطة الشيخ، وتركنا لا نعرف من أمره فى السنوات الثلاث والعشرين التى قضاها مستقراً فى فاس،إلا أنه أقام فى حاشية السلطان «فغمره من إحسانه الجزيل، وإمتنانه الحفى الحفيل، ما أنساه الماضى بالحال، وأغناه عن طول الترحال»، وأنه كان

يحدث الناس بما رآه من عجائب الأسفار وهم يعجبون من ذلك فيصدقه بعضهم ويميل البعض إلى تكذيبه أو يشكون فى أحاديثه، وكان ابن خلدون من هؤلاء المتشككين فيما يبدو، فهو يروى فى مقدمته المشهورة أنه: «ورد بالمغرب لعهد السلطان أبى عنان من ملوك بنى مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة، كان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق وتقلب فى بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلى حاضرة ملك الهند.. وكان يحدث عن شأن رحلته، وما رأى من العجائب بممالك الأرض، وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتى من أحواله بما يستغربه السامعون .... فتناجى الناس بتكذيبه، ولقيت أيامئذ وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت، ففاوضته فى هذا الشأن، وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض فى الناس من تكذيبه، فقال لى الوزير فارس: إياك أن تستنكر هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره، فتكون كابن الوزير الناشئ فى السجن. وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه، ومكث فى السجن سنين ربى فيها ابنه فى ذلك المجلس، فلما أدرك وعقل سأل عن اللحمان التى كان يتغذى بها، فإذا قال له أبوه هذا لحم الغنم؛ قال وما

الغنم؟ فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها. فيقول يا أبت تراها مثل الفار؟ فينكر عليه ويقول أين الغنم من الفار! وكذا فى لحم الإبل والبقر، إذ لم يعاين فى محبسه من الحيوانات إلا الفأر فيحسبها كلها أبناء جنس الفأر».

ويتخذ ابن خلدون من حديثه مع الوزير أساساً لوضع قاعدة من قواعد النقد الدقيق فيعقب بقولة: «وهذا كثيراً مما يعترى الناس في الأخبار، كما يعترى بهم الوسواس في الزيادة عند قصد الإغراب... فليرجع الإنسان إلى أصوله، وليكن مهيمناً على نفسه، ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله، ومستقيم فطرته، فما دخل فى نطاق الامكان قلبه، وما خرج عنه رفضه، وليس مرادنا الإمكان العقلى المطلق، فإن نطاقه أوسع شئ، فلا يفرض حداً بين الواقعات؛ وإنما مرادنا الإمكان بحسب المادة التى للشئ، فانا إذا نظرنا أصل الشئ وجنسه وصنفه ومقدار عظمة قوته، أجرينا الحكم من نسبة ذلك على أحواله، وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه...». ولو كان ابن بطوطة قد نهج هذا المنهج الخلدونى السليم لخلت رحلته من الثغرات التى تنفذ منها سهام الطعن الموجه إليه ولكن السلطان أبا عنان كان معجباً بابن بطوطة و بما يروى من أخبار

بصـرف النظر عن المنهج الذى تسـيـر عليـه، ومن ثم «نفذت الإشـارة الكريمة بأن يملى ما شـاهده فى رحلته من الأمصار، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار، وعلمائها الأخيار، وأوليائها الأبرار فـأملى من ذلك مـا فـيـه نزهة الخـواطر، وبـهجـة المسامع والنواظر، من كل غريبة أفاد باجتلائها، وعجيبة أطرف بانتحائها».

وكان كاتب القصة ـ فيما يبدو ـ على شاكله ابن خلدون، لا يسلم بكل مـا يملى عليـه، بيد أن من كـان فى مـثل وظيفته من حاشية السلطان لا يستطيع أن يجهر برأى ، ولكن عبارة فى المقدمة التى صدر بها الكتاب تنم على مـا كـان يعتمل فى خـاطره إذ يقول: «وأوردت جميع مـا أورده من الحكايات والأخبـار، ولم أتعـرض لبـحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار»، ثم لا يلبث أن يعود فينصف ابن بطوطة ويقول: «على أنه سلك فى إسناد صـحاحها أقوم المسالك، وخرج من عهدة سـائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك، وقيد الشكل من أسماء المواضـع والرجال بالشكل والنقط ليكون أنفع فى التصـحيح والضـبط» ولا ندرى هل يؤمن بهذا حقاً أم أنها مجرد مجاملة للسلطان!؟

أما كاتب الرحلة هذا فهو محمد بن جزى الكلبى؛ وقد ولد فى غرناطة، والتحق بخدمة بنى نصر، وترقى فى الوظائف حتى شغل منصب كاتب السلطان أبى الحجاج بن يوسف، فلما أختلف معه هاجر إلى فاس ليشغل نفس المنصب فى بلاط السلطان أبى عنان المرينى، وأصبح محل ثقته. وقد عهد إليه بكتابة أخبار ابن بطوطة فقضى فى ذلك ثلاثة أشهر، يستمع إلى الرجل ويسجل ما يملى عليه منها «وكان الفراغ من تقييدها فى ثالث ذى الحجة عام ستة وخمسين وسبعمائة» (ديسمبر ١٣٥٥م). ويظهر أن هذا التقييد كان مجرد مسودة للرحلة أعاد صياغتها فيما بعد «فكان الفراغ من تأليفها فى شهر صفر عام سبعة وخمسين وسبعمائة» (فبراير ١٣٥٦م) أى أنه أنفق قرابة ثلاثة أشهر أخرى فى تبييض المسودة ووضعها فى صورتها النهائية.

ولا يدل أسلوب ابن جزى على أنه كان من الكتاب الموهوبين، وهو كثيراً ما يعمد إلى السجع المتكلف. وإلى الإطناب حيث لا محل للإطناب، وإلى تضمين أشعار الشعراء بلا مناسبة ودون أن تكون لها صلة بالموضوع. ولعل أسوأ ما فى الأمر أن يضمن كلامه فقرات

يقتبسها من المؤلفين السابقين دون أن يشير إلى أسمائهم، وكثيراً ما سطا على مواطنه ابن جبير فنقل من رحلته فصولا على نحو ما نرى فى وصف دمشق وحلب وبغداد وغيرها فأفسد بذلك الإطار العام لحديث ابن بطوطة القصصى المسترسل، الفياض بالحيوية والخالى من الحشو والتكلف.

بيد أننا يجب أن نعترف بأن الرجل بذل غاية الجهد فى أن يخلق من أخبار ابن بطوطة عملا فنياً متماسكاً، ولاشك أنه لقى فى ذلك كثيراً من العناء، فابن بطوطة لم يكن جغرافياً يهتم بالمكان أهتمامه بمقابلة الأشخاص والتحدث عنهم. وهو لم يدون مذكرات عن أسفاره أو لعله دون شيئاً وضاع. فكان كل أعتماده فى إملاء أخبار رحلته على ما وعته ذاكرته، وعسير مهما كان المرء من قوة الذاكرة أن يروى التفاصيل الكاملة لأحداث ربع قرن. ولهذا كانت أخبار الرجل قصصاً متفرقات. ولما كان ابن جزى لا يعرف شيئاً من أمر البلاد التى تحدث عنها ابن بطوطة فليس غريباً أن يقع فى أخطاء وهو يحاول أن ينسج من أخبار محدثه قصة متكاملة البناء. وماذا يصنع ابن جزى وقد قطع صاحبه على نفسه عهداً بألا يسلك طريقاً ما أكثر من مرة، فكثرت

أسماء الأماكن التى يذكرها واختلطت عليه مواقعها والمسافات التى تفصل بينها؟! وماذا يصنع ابن جزى وصاحبه رجل يستمع إلى القصص التى يرويها المترجمون المحليون فيصدقها دون تحقيق أو تمحيص؟!

ومهما يكن من أمر فقد كان هذا الاضطراب سبباً فى توجيه النقد إلى بعض أجزاء الرحلة، وبخاصة ما يتعلق منها بوصفه للقسطنطينية وبزيارته للصين. وهو فى الأولى أخف وأيسر فمعظمه ينصب على اضطراب التواريخ، غير أن هناك إجماعاً على أن الرجل قد وصف المدينة وصف شاهد عيان قوى الملاحظة؛ ولكنه فى الأخرى أدهى وأمر حتى أن البعض لينكر أن يكون ابن بطوطة قد زار الصين أصلا، ومن هؤلاء شيفير Schefer وفيران Ferrand ويول Yule وعندهم أن ما ذكره عن هذه البلاد إنما هو من قبيل التلفيق، وهو زعم فيه كثير من التحامل.. حقاً إن وصف الرجل المفصل للصين فيه كثير من التحامل.. حقاً إن وصف الرجل المفصل للصين فيه كثير من النقاط الغامضة، ولكن هذا لا يقوم دليلا على أن كل ماذكره الرجل عن الصين إنما هو من نسج الخيال. ففيه فقرات معينة لا يمكن أن تصدر إلا عن معاينة مباشرة، وكثير من أحاديثه تؤكده

المصادر الصينية فيما يروى البحاثة اليابانى ياماموتو Yamamoto، وتؤيده رحلة ماركوبولو الذى زار الصين من قبله ومكث فيها زهاء سبعة عشر عاماً، ومات قبل أن يبدأ ابن بطوطة رحلته بعام واحد.

- ٤ -

ويشتمل كتاب «تحفة النظار، فى غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار» على وصف للرحلات الثلاث التى قام بها ابن بطوطة.

والرحلة الأولى هى أهم الرحلات وأطولها ولذا فإن حديثها يستغرق معظم صفحات الكتاب وقد قضى فيها الرجل ما يقرب من ربع قرن، إذ بدأها من طنجة مسقط رأسه «فى يوم الخميس الثانى من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام» (١٤ يونيه ١٣٢٥م) وأنهاها فى مدينة فاس التى وصل إليها «يوم الجمعة فى أواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعمائة» (نوفمبر ١٣٤٩).

ولم يكن ابن بطوطة يوم أن خرج من طنجة يعرف أن الأقدار ستجعل منه جغرافياً رغم أنفه، فقد خرج ينوى

فـريضـة الحج فـحـسب، ولم يدر في خلده أن النوى ستقذف به إلى مختلف البلاد فلا يعود إلى وطنه إلا بعد سنين طوال. ومن السهل أن نتابع رحلته في المغرب وفي [illegible] فقد مر بالجزائر وتونس وليبيا ووصل الإسكندرية في أول جمادى الأولى سنة ٧٢٦هـ (٥ أبريل ١٣٢٦م) أي أنه أنفق زهاء عشرة أشهر في هذا الجزء القصير من رحلته، تزوج فيها مرتين وطلق مرة واحدة. وفي الإسكندرية بدأ يفكر ـ وربما ليس لأول مرة ـ في أن يتحول من حاج إلى رحالة محترف بعد أن لقي فيها «الإمام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج» وأقام في ضيافته ثلاث ليال. وكان هذا الشيخ هو الذي ألقى في روعه التقلب في البلاد وزيارة مختلف الأمصار ويروي ابن بطوطة قصة هذا الأمر فيقول:

«دخلت عليه يوماً، فقال لي: أراك تحب السياحة في البلاد؟ فقلت له: نعم إني أحب ذلك. ولم يكن حينئذ خطر بخاطري التوغل في البلاد القاصية من الهند والصين، فقال: لابد لك من زيارة أخي فريد الدين بالهند، وأخي ركن الدين زكرياء بالسند، وأخي برهان الدين بالصين، فإذا لقيتهم فأبلغهم مني السلام، فعجبت من قوله وألقى في روعي التوجه إلى تلك البلاد، ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم»

ومن الإسكندرية قصد القاهرة، ولكنه لم يسلك الطريق المألوف للحجاج، بل راح ينتقل في ريف مصر. ويوحي خط سيره في الدلتا بأنه قد وضع الحج فعلا في المقام الثاني، وأخذ يهتم بزيارة المدن ومقابلة الأشخاص وبخاصة العلماء والأولياء. فهو يعرج على تروجه ودمنهور ثم يقصد فوة. ويعبر فرع رشيد إلى منية المرشد لزيارة شيخها أبي عبد الله المرشدي، وكان قد سمع به أيام إقامته في الإسكندرية. وبينما هو نائم ذات ليلة يرى وكأنه «على جناح طائر عظيم يطير في سمت القبلة، يتيامن، ثم يشرق، ثم يذهب في ناحية الجنوب، ثم يبعد الطيران في ناحية الشرق، وينزل في أرض مظلمة خضراء» ويتركه بها. فلما قص رؤياه على الشيخ المرشدي فسرها بأنه سوف يحج ويتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند ويبقى بها مدة طويلة، وسيلقى فيها أخاه دلشاد الهندي!.. ترى هل تصدق الأحلام إلى هذا الحد فترسم خريطة لرحلة مستقبله تستغرق خمسة وعشرين عاماً؟! أم هو الفتى الشاب أراد أن يبرر لنفسه تقاعسه عن السير المباشر إلى بيت الله الحرام فروى حديث الشيخين الأعرج والمرشدي؟!

ومن فوة سار رحالتنا إلى النحارية وابيار والمحلة الكبرى وملطين (بلطيم) ثم دمياط التى يصفها بأنها «على شاطىء النيل، وأهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها إلى النيل، وشجر الموز بها كثير، يحمل ثمره إلى مصر فى المراكب، وغنمها سائمة هملا بالليل والنهار، ولهذا يقال فى دمياط سورها حلوى، وكلابها غنم. وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج إلا بطابع الوالى: فمن كان من الناس معتبراً طبع له فى قطعة كاغد، يستظهر به لحراس بابها، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به. والطير البحرى بهذه المدينة كثير متناهى السمن، وبها الألبان الجاموسية التى لا مثيل لها فى عذوبة الطعم وطيب المذاق؛ وبها الحوت البورى يحمل منها إلى الشام وبلاد الروم ومصر».

ومن دمياط يتجه إلى أشمون الرمان فسمنود، حيث يركب النيل مصعداً إلى مصر، وهو يخصها بحديث طويل يصف فيه مساجدها ومدارسها ومستشفياتها والقرافة والنيل والأهرام، ويصف المدينة بأنها «تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها» وقد يبدو أن فى هذا الوصف الإنشائى مبالغة

دفع إليها حب ابن بطوطة لمصر، ولكن يؤيده ما ذكره الرحالة الإيطالى فرسكوبالدو Frescobaldo الذى زار القاهرة في سنة ١٣٨٤ وذكر أن مئات الألوف من سكانها ينامون خارج المدينة لقلة المساكن فيها.

ومن القاهرة يتوجه مع الحاج الأفريقى إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر ماراً بمدن الصعيد الكبرى، ولكن الحرب القائمة بين السلطان وقبائل البجاة تحول بينه وبين عبور البحر فيعود إلى القاهرة ليرحل منها إلى الشام فيزور «غزة أول بلاد الشام مما يلى مصر» فمدينة الخليل فالقدس؛ ومن بعدها يضطرب حديث رحلته، فلا نستطيع رسم خريطة لخط سيره. ويتحدث عن مدن الشام بلا ترتيب، وهي ظاهرة تتكرر فيما بعد. وكان من بين البلاد الشامية التى زارها صور وصيداء وطبرية وبيروت وطرابلس وحلب وبعلبك، ثم دمشق التى يسهب في وصفها وتعديد بعض فضائل أهلها وعاداتهم ولا ينسى بين الحين والحين أن يطعم حديثه ببعض الطرف والحكايات.

وفي دمشق يترك زوجته ويخرج مع الركب الشامى قاصداً الحجاز، سالكاً طريق الحج المألوف. وما كان له

أن يفعل غير ذلك، فظروف الصحراء الشاقة تحتم على سالكيها أن يلتزموا بدرب محدد وإلا تعرضوا للهلاك... وبعد رحلة طويلة وصل الركب مدينة الرسول فأقاموا بها أربعة أيام، ثم خرجوا قاصدين مكة المكرمة لتأدية فـريضـة الحج. ويصف ابن بطوطة المدينة المنورة ومعالمها، والطريق إلى مكة وما به من آبار ومواضع ويتكلم فى إسهاب عن شعائر الحج وعن المسجد الحرام ثم يصف مكة المعظمة بأنها «مدينة كبيرة متصلة البنيان، في بطن واد تحف به الجبال، فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها، وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ... ولأهل مكة الفعال الجميلة، والمكارم التامة، والأخلاق الحسنة، والإيثار للضعفاء والمنقطعين، وحسن الجوار للغرباء... ونساء مكة فائقات الحسن، بارعات الجمال، ذوات صلاح وعفاف، وهن يكثرن التطيب، حتى إن إحداهن لتبيت طاوية وتشترى بقوتها طيباً، وهن يقصدن الطواف بالبيت فى كل ليلة جمعة، فيأتين في أحسن زى، وتغلب على الحرام رائحة طيبهن، وتذهب المرأة فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقاً. ولأهل مكة عادات حسنة فى الموسم وغيره».

ويحقق ابن بطوطة الغرض الذى ترك من أجله طنجة

وهو تأدية فريضة الحج، ولكنه بدلا من أن يفكر فى العودة إلى وطنه كما يفعل معظم الحجاج، يخرج من مكة فى العشرين من ذى الحجة سنة ٧٢٦هـ (أكتوبر ١٣٢٦م) مع الركب العراقى، ولا يقصد إلى بغداد مباشرة كما كان ينتظر، بل ينفصل عن الركب فى النجف ليزور واسط والبصرة التى أنتهت إليها زعامة النحو يوماً ما، وقد فشا فيها الجهل بقواعد اللغة حتى لا يسلم من هذا خطيب الجمعة فيها.

ومن الأبلة يتجه إلى أطراف فارس، فيزور تستر واصفهان وشيراز وكازرون، ويكشف فى وصفه عن إعجاب عظيم بمظاهر الطبيعة، بالإضافة إلى عنايته المعهودة بالناس، وبأحوالهم الأقتصادية والاجتماعية، وبحديثه عن العلماء والأولياء وما لهم من كرامات. ويضطرب حديثه عن زيارته لشيراز وهو يملى قصته، فيخلط بين زيارته الأولى هذه وزيارته الثانية لها فى طريق عودته فى سنة ١٣٤٧م. ثم يقفل عائداً إلى العراق فينزل بالكوفة ويسترعى نظره كثرة الشيعة فى جهاتها، ثم يقصد بغداد التي فقدت الكثير من رونقها وعظمتها بسبب تخريب المغول لها؛ وقد وافق وصوله إليها وجود أبى سعيد بهادو خان ملك العراقين وخراسان الذى أعجب بموكبه ونظامه.

وأقام ابن بطوطة في العراق شهرين، زار فيهما تبريز والموصل ونصيبين وماردين ثم عاد إلى بغداد، فوجد الحاج العراقي على أهبة الرحيل فصحبه إلى مكة حيث أدى فريضة الحج للمرة الثانية. ويظهر أن الأسفار المتواصلة كانت قد أجهدت الرجل فصح عزمه على أن يجاور بمكة ثلاث سنوات كاملة (٧٢٧ ـ ٧٣٠ هـ؛ ١٣٢٧ ـ ١٣٣٠م) حج فيها ثلاث مرات، وشهد خلالها الفتنة التي وقعت بين أمير مكة «عطيفة» وبين أيدمور أمير جند الملك الناصر؛ ثم خرج من مكة قاصداً بلاد اليمن فذهب إلى جدة ومنها ركب البحر لأول مرة في حياته وكان متهيباً لركوبه. وبعد يومين تغيرت الريح، فصدت المركب عن السبيل التي قصدتها، وأنتهت بها إلى الساحل الأفريقي للبحر الأحمر، فأرست عند رأس دوائر فيما بين عيذاب وسواكن، فلما تحسن الجو ركب البحر من سواكن يريد أرض اليمن وهذا البحر «لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره، وإنما يسافرون فيه من طلوع الشمس إلى غروبها» والواقع أن هذه المنطقة من ساحل البحر الأحمر تكثر فيها شعاب المرجان مما يعرض الملاحة للأخطار ما لم تتخذ الحيطة اللازمة. وبعد ستة أيام وصل إلى ميناء «حلي» فأكرمه

سلطانها عامر بن ذؤيب وكان قد عرفه من قبل في حج سنة ثلاثين.

وفي اليمن زار «زبيد» التي كانت المقر الشتوي للسلطان نور الدين علي، خامس سلاطين دولة بني رسول. ثم يخرج منها قاصداً صنعاء قاعدة بلاد اليمن الأولى، ويسترعي نظره «أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة إنما ينزل في أيام القيظ وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم في ذلك الأوان» ويعد هذا من الأمور الغريبة، وهو أمر لا نستغربه من ابن بطوطة الذي ينتمي إلى حوض البحر المتوسط حيث لا يكون المطر إلا في فصل الشتاء.

إنحدر ابن بطوطة من صنعاء إلى «عدن مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الأعظم» ويظهر أنه لم يعد يخشى البحر كما خشيه وهو يركبه في جدة، فقد سافر من عدن في البحر أربعة أيام قاصداً ساحل أفريقية الشرقي فلما بلغ زيلع وجدها «أقذر مدينة في المعمور، وأوحشها وأكثرها نتناً» حتى لقد فضل أن «يبيت في البحر على شدة هوله ولم يبت فيها لقذرها»، وبعد رحلة بحرية أستغرقت خمس عشرة ليلة وصل مقدشو،

والتقى بسلطانها أو شيخها كما يدعوهالقوم، ووصف مجلسه وكيفية الدخول عليه، ثم ركب «البحر من مدينة مقدشو متوجهاً إلى بلاد السواحل قاصداً مدينة كلوا من بلاد الزنوج» والسواحل هو الاسم الذى أطلقه العرب على أفريقية الشرقية التي هى الآن كينيا وتنزانيا، ومنه أشتق اسم اللغة السواحلية التى تسود الآن فى تلك الجهات.

وبعد زيارة سريعة لساحل شرقي أفريقية، عاد رحالتنا إلى بلاد العرب. وأظنه كان قد أصبح مغرماً بركوب البحر، فهو يركبه فى رحلة جديدة يطوف فيها السواحل الجنوبية والشرقية لشبه الجزيرة العربية قبل أن يقصد مكة ليحج حجته الخامسة، وكان أول نزوله «مدينة ظفار الحموض... آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندى، ومنها تحمل الخيل العتاق إلى الهند، ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند، مع مساعدة الريح، فى شهر كامل...» ويرى أن «من العجائب أن دوابهم إنما علفها من السردين وكذلك غنمهم» وهو أمر لا يزال شائعاً حتى اليوم. ويصف ابن بطوطة سكان ظفار ويتحدث عن سكانها وتجارتها ويصف أشجارها ويوجه عناية خاصة إلى التانبول والنارجيل وهو جوز

الهند، «وهذا الشجر من أغرب الأشجار شأناً وأعجبها أمراً، وشجرة شبه شجر النخل لا فرق بينهما إلا أن هذه تثمر جوزاً وتلك تثمر تمراً، وجوزها يشبه رأس ابن آدم، لأن فيه شبه العينين والفم، وداخلها شبه الدماغ إذا كانت خضراء، وعليها ليف يشبه الشعر، وهم يصنعون به حبالا يخيطون بها المراكب عوضاً من مسامير الحديد».

ومن ظفار واصل صاحبنا رحلته إلى بلاد عمان، ومنها سافر إلى هرمز وسيراف ووصف مغاص اللؤلو فيما بين سيراف والبحرين. ثم عبر الخليج العربى إلى القطيف، وانحدر إلى هجر فاليمامة التى صحب أميرها برسم الحج، وأدى الفريضة للمرة السادسة سنة ٧٣٢هـ فلما أنتهى الحج عزم على السفر إلى اليمن والهند. فتوجه إلى جدة، ومكث فيها أربعين يوماً ينتظر مركباً تحمله، فلما لم يوفق أخذ مركباً برسم عيذاب، وأنتهى به المطاف إلى مصر، فلم يقم فيها طويلا وتركها قاصداً بلاد الشام، ومنها سافر إلى «بر التركية» بطريق البحر، وكانت العلايا أول مدينة ينزل بها، ثم زار معظم المدن الكبرى فى آسيا الصغرى مثل أنطالية (أضالية) وقونية وأقصرا وسيواس وأيا سلوق

(افيسوس) ويزمير (أزمير) ومغنيسية (منيسه) وبرصا وقصطمونية وأنتهى إلى ميناء صنوب (سينوب) على البحر الأسود: وخط سير الرجل فى هذه الأنحاء يعتوره خلط شديد حتى ليتعذر تحقيقه. ولكن ابن بطوطة من ناحية أخرى يعطى صورة واضحة للدولة العثمانية فى دور نشأتها، إذ يصف الامارات والدويلات التركية المتعددة قبل أن يجمعها العثمانيون فى دولة واحدة.

ويعد أن أقام في صنوب أربعين يوماً عبر البحر الأسود إلى شبه جزيرة القرم، فنزل في مدينة الكفا (فيودوسيا) وكانت تابعة لجمهورية جنوة ويها أكبر سوق للرقيق المملوكى فى العصور الوسطى، وفيها سمع ابن بطوطة صوت نواقيس الكنائس لأول مرة فى حياته. ثم أكترى عجلة وسافر إلى مدينة القرم فقضى فيها أياماً تركها بعدها إلى مدينة أزاق (آزوف) فبلدة الماجر بالقوقاز، وفيها تجهز قاصداً معسكر السلطان محمد أوزبك خان مغول القبيلة الذهبية، وكان ينزل على مسيرة أربعة أيام من الماجر بموضع يقال له «بش دغ»

ويتحدث ابن بطوطة عن مثوله فى حضرة السلطان، وعن زوجاته الأربع وترتيبهن فى السفر معه، وعن بنته

وولديه؛ ويسمع عن مدينة البلغار فيتوجه إليها ليرى «ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها، وقصر النهار أيضاً، في عكس ذلك الفصل». وفيها يفكر في السفر إلى أرض الظلمة (سيبريا) ثم يضرب عن ذلك لعظيم المؤنة، وقلة الجدوى، ويعود من مدينة البلغار إلى معسكر الخان في بش دغ حيث يقضى أيام عيد الفطر، ويصف عادات القوم فيه؛ ثم يرحل مع السلطان إلى مدينة الحاج ترخان (استراخان) وفيها ترغب الزوجة الثالثة للسلطان وهي بيلون بنت ملك الروم اندرونيكوس الثالث أن تزور أباها لتضع حملها عنده، ويستأذن ابن بطوطة في أن يصحبها إلى القسطنطينية، فيؤذن له، ويسير في ركبها. ولا نعرف على وجه التحقيق الطريق الذى سلكه الموكب عبر البلقان لغموض أسماء كثير من المدن التي يذكرها ابن بطوطة.

وفي القسطنطينية عزم الخاتون على ألا تعود لزوجها، وكان قد مضى على مقامها شهر وستة أيام، ومن ثم قفل ابن بطوطة عائداً إلى عاصمة السلطان أوزبك في مدينة السرا على نهر الفلجا، ومنها عبر النهر وسار إلى خوارزم «أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها» ثم غادرها إلى بخارى وسمرقند

وترمذ وبلخ وغزنة وكابل ووصل إلى السند المعروف ببنج آب بتاريخ الغرة من شهر الله المحرم مفتتح عام أربع وثلاثين وسبعمائة (١٢سبتمبر ١٣٣٣م) . وبهذا ينتهي الجزء الأول من الكتاب.

-٥-

كان قد مضى على ابن بطوطة يوم أن دخل الهند نحو تسعة أعوام منذ مغادرته مسقط رأسه طنجة. وفي الهند أقام تسعة أعوام أخرى، فقد تركها قاصداً الصين في السابع عشر لشهر صفر سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة (٢٢يوليه ١٣٤٢م) فلا غرابة إذن أن يخص الهند بالنصف الأول من الجزء الثاني، خاصة وأنه لقي الحظوة لدى السلطان محمد بن تغلق الذى عينه فى منصب القضاء بدهلى لمدة خمس سنوات.

ويفيض ابن بطوطه فى وصفه لبلاط السلطان، ومراسيم احتفالاته، واستقباله للملوك والأمراء. ويقص الحكايات عن تواضعه وإنصافه، واشتداده فى إقامة أحكام الشرع، ورفعه للمغارم والمظالم. ولكنه في الوقت نفسه لا يغفل فتكات هذا السلطان، وما نقم من أفعاله. ولا ينسى ابن بطوطه أن يشبع هوايته الخاصة فى

الحديث عن الناس وحياتهم وعاداتهم، فيتحدث عن أشجار الهند وفواكهها، والحبوب التى يزرعها الهنود ويقتاتون بها، وعن عاداتهم فى حرق أنفسهم بالنار، وعن نهر الكنج المقدس ورماد الجثث المحرقة، وعن السحرة الذين يدعون «بالجوكية» ويتسم حديثه عن هذه الأمور بالصدق والبساطة.

ويرى السلطان أن يبعث بهدية إلى ملك الصين، فلا يرى خيراً من ابن بطوطة ليرأس الوفد الذاهب إلى الصين، لما يعرفه فيه من حب الأسفار والرحلات. ولا يكاد الوفد يصل مدينة كول (عليكرة) حتى يشترك فى حرب ضد الهنادك؛ ويستشهد بعض أعضائه ويقع ابن بطوطة فى أسر جماعة منهم يسلبونه كل متاعه، ولكنه لا يلبث أن ينجو من الأسر «على يد ولى من أولياء الله». ويلحق برفاقه فيجدهم قد تشاءموا من السفر وعزموا على الرجوع، غير أنه يقنعهم بمواصلة السير إلى قندهار. وبعدها يركب الوفد البحر، فيمر بساحل الفلفل (ساحل مليبار) حتى ينتهى إلى قاليقوط وكانت مجمع سفن أهل الصين وجاوة وسيلان وإيران ويفيض ابن بطوطة فى وصف ما رآه من أحوال أهل الصين وفنونهم وما خصوا به من أحكام الصناعات ويتحدث عن الفخار

الصيني، وعن التراب الذى يوقدونه مكان الفحم، وعن عادتهم في تقييد ما فى المراكب، وفى منع التجار من الفساد، وحفظهم للمسافرين فى الطريق؛ وعن نظام التأمين الاجتماعى الذى وضعوه لحماية العجزة والشيوخ والأيتام والأرامل، وعن العملة الورقية التى يستخدمونها فى البيع والشراء: «فأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم... وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد، كل قطعة منها بمقدار الكف، مطبوعة بطابع السلطان، وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد إنسان، حملها إلى دار كدار السكة عندنا، فأخذ عوضها جدداً ودفع تلك، ولا يعطي على ذلك أجرة ولا سواها، لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان».

ولا يطيب عيش ابن بطوطة وقد وصل «خان بالق» عاصمة الصين، إذ تقوم فيها الفتن، وينتهى أمرها بمقتل القان؛ ويضطر الرجل إلى مغادرة المدينة على عجل عائداً إلى الزيتون، حيث وجد سفينة حملته إلى سومطرة ومنها إلى ساحل مليبار. ولا يعود الرجل إلى

دلهى ليلقى سلطانها صاحب الرسالة التى لم تصل والهدية التى ابتلعها البحر، بل يسافر إلى هرمز ومنها إلى العراق فالشام فمصر، ويقضى فى القاهرة حيناً ثم يسافر إلى مكة ليحج حجته السابعة والأخيرة فيصلها فى الثانى والعشرين لشعبان سنة تسع وأربعين (١٦ نوفمبر ١٣٤٨م). فلما انتهى الحج عاد مع الركب الشامى إلى غزة ثم القاهرة، وفيها علم «أن مولانا أمير المؤمنين، وناصر الدين، المتوكل على رب العالمين، أبا عنان قد ضم الله به نشر الدولة المرينية، وشفى ببركته بعد إشفائها، البلاد المغربية، وأفاض الاحسان على الخاص والعام، وغمر جميع الناس بسابغ الإنعام، فتشوقت النفوس إلى المثول ببابه، وأملت لثم ركابه، فعند ذلك قصدت القدوم على حضرته العلية، مع ما شفنى من تذكار الأوطان، والحنين إلى الأهل والخلان، والمحبة لبلادى التى لها الفضل عندى على البلدان».

ويبحر الرجل من مصر إلى تونس فى صفر سنة ٧٥٠هـ (مايو ١٣٤٩م) ويقيم فترة لدى أحد أقاربه فيها؛ وبدلا من أن يوصل سفره إلى بلاده بطريق البر يركب البحر إلى جزيرة سردينية ثم يعود بها إلى مستغانم بالساحل الجزائرى ثم يقصد فاس، فيصلها فى أواخر

شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعماية (نوفمبر ١٣٤٩م) ويمثل بين يدى سلطانها أبى عنان، الذى شمله بعطفه، وغمره بإحسانه.

ـ ٦ ـ

ولا يستقر ابن بطوطة طويلا في فاس، بل يقوم برحلته الثانية إلى الأندلس ليكون له «حظ من الجهاد والرباط» فيما يقول، فقد كان المسلمون فيها يعانون أخطر مرحلة فى تاريخهم بعد أن ضاع معظم ملكهم. ويقضى الرجل فى رحلته هذه شهوراً من عامى ٧٥١، ٧٥٢ هـ (١٣٥٠ ـ ١٣٥١م) يتنقل فيها من بلد إلى بلد، فيزور رنده ومريلة ومالقه ويلش Velez وغرناطة وملكها إذ ذاك أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل من ملوك بنى نصر، وفيها التقى بابن جزى الذى شاء له القدر أن يكون كاتب رحلته بعد ذلك بخمس سنوات ومن غرناطة يعود الرجل إلى فاس بطريق مراكش ومكناسة، ويظهر أنه لم يكن يقصد الجهاد كما زعم، وإلا لا متدت إقامته فى الأندلس، ولا ستقر فى قلعة من القلاع مع المرابطين، وإنما هى زيارة خاطفة أشبه بزيارات السائحين فى هذه الأيام.

وحديث ابن بطوطة عن رحلته الأندلسية مقتضب بعكس حديثه عن الرحلة الأولى، ولعل مرد ذلك إلى أن أهل المغرب كانوا يعرفون عن الأندلس الشيء الكثير، فلم يكن لدى رحالتنا جديد يرويه. ولا يتحدث الرجل حديثاً ذاتياً كما كان يفعل وهو يقص أخبار أسفاره في المشرق بل يتحدث عن جبل الفتح (جبل طارق) وما أقامه فيه أبو الحسن وأبو عنان من تحصينات.

وكانت رحلة ابن بطوطة الثالثة والأخيرة إلى بلاد السودان الغربي، وكأنما أراد ألا يلقي عصا التسيار إلا بعد أن يزور كل بلاد المسلمين، وأستغرقت هذه الرحلة عامي ٧٥٣، ٧٥٤ هـ (١٣٥٢ ـ ١٣٥٣م) وكان ابن بطوطة أول من جاب الصحراء الأفريقية الكبرى ووصف مشاهداته فيها. وقد خرج الرجل من سجلماسة في غرة محرم سنة ثلاث وخمسين في رفقة قافلة مرت ببلدة تغازا ثم تاسرهلا التي أرسلت منها تكشيفا (كشافاً) ليستطلع الطريق، وليعد لإقامتها في ايوالاتن أول أقاليم مملكة السودان، وقد وصلتها القافلة بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة، ويعجب ابن بطوطة من سكانها الذين لهم فعال لا تتفق وإسلامهم «فأما رجالهم فلا غيرة لديهم، ولا ينسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب إلى

خاله، ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه.... وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن، مع مواظبتهن على الصلوات، ومن أراد التزوج منهن تزوج، لكنهن لا يسافرن مع الزوج، ولو أرادت إحداهن ذلك لمنعها أهلها» ويروى قصتين طريفتين يؤيد بهما كلامه..

ومن ايوالاتن يتجه لزيارة مملكة مالى التى خلفت مملكة غانة وامتدت حدودها على النيجر حتى «جاو»، ويبلغ مدينة كارسخو على النيجر الذى يحسبه نهر النيل وقد ظل كل الرحالة يعتقدون ذلك حتى أثبت مانجو بارك فى سنة ١٧٩٥م أن لا صلة بين النهرين. وأخيراً يصل رحالتنا إلى مدينة مالى نفسها، حاضرة ملك السودان وهو كعادته يتحدث فى روايته عن السلطان، وعن سكان المملكة وعاداتهم وطباعهم، وما يستحسنه من أفعالهم، وما يستقبحه منها، ويصف شجر الباو باب الضخم الذى يستخدمه القوم لخزن مياه المطر، ولا يزالون يفعلون ذلك حتى اليوم، ويتحدث عن الخيل التى تكون فى النيل، ويقصد بها أفراس النهر، ثم ينتهى إلى «تنبكتو» ويلتقى فيها بجماعة من المصريين يكرمون وفادته، ويواصل سيره إلى تكدا، وفيها يجيئه أمر السلطان بالعودة إلى فاس.

ويطوى النسيان رحلة ابن بطوطة، فهى لم تكن من النثر الفنى الذى يتوارثه المشتغلون بالأدب العربى عبر القرون؛ ومع أنها حفلت بالحكايات والقصص والأساطير التى تعطى صوراً للمجتمع الذى عاش فيه ابن بطوطة والتى قد تستهوى الناس، فلم يكن لها حظ من الرواج والذيوع فى القرون التالية، وأغفلها الكتاب الذين جاءوا من بعده إغفالا تاماً، فلا إشارة إليها، ولا اقتباس منها كما كانت العادة مع أمثالها من المصنفات

ويختصر الرحلة في القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) كاتب يدعى البيلونى، فلا يكون المختصر بأحسن حظاً من النص الكامل، فينسى هو كذلك كما نسى الأصل من قبل، ولكنه يكون بعد قرن من الزمان الخيط الذى يهدى إلى الرحلة ويدل عليها، فقد عثر على مخطوطات موجز البيلونى اثنان من رحالة الربع الأول من القرن التاسع عشر هما زيتسن Seetzen الألمانى وبوركهارت Burckhardt البريطانى ونقلاها إلى مكتبتى جوتا وكمبردج، فكان هذاهو بداية اهتمام أوربا بابن بطوطه ورحلته، ومن عجب أن يظل العرب على

جهل ببضاعتهم حتى تكتشفها أوربا، ثم لا يسارعون باستردادها إلا بعد سنين طوال.

عرفت أوربا إذن رحلة ابن بطوطة ممثلة فى الموجز الذى كتبه البيلونى، وكان المستشرق كورجارتن kos-egarten أسبق العلماء الأوربيين عناية بها، فدرسها دراسة تحليلية نشرها في سنة ١٨١٨م ومعها ترجمة باللاتينية لثلاث مقتطفات منها أعطاها عناوين الرحلة الفارسية Iter Persicum والرحلة الماللديفية Iter Maldiv-icum والرحلة الأفريقية Iter Africanum ثم جاء من بعده تلميذه ابتز Apetz فدرس وصف ابن بطوطة لساحل مليبار ونشر دراسته فى سنة ١٨١٩م.

وفى سنة ١٨٢٩ نشر القس صموئيل لى Rev. Samuel Lee فى لندن أول ترجمة كاملة لموجز الرحلة باللغة الإنجليزية.

وبعد أن تم للفرنسيين الاستيلاء على مدينة قسمنطينه الجزائرية، عثروا على خمس مخطوطات من رحلة ابن بطوطة، وكان بعض أجزائها بخط ابن جزى نفسه، وكان من بين المخطوطات اثنتان كاملتان. ونقلت هذه المخطوطات بالطبع إلى المكتبة الأهلية بباريس، وعنى

اثنان من العلماء الفرنسيين هما دفريمرى Defremery وسانجينتى Sanguinitti بدراستها، ومقابلة النسخ بعضها ببعض، ومقارنة نصوصها، وتمكنا فى النهاية من طبع الرحلة كاملة مع ترجمة إلى اللغة الفرنسية ومقدمة علمية تحليلية طويلة. ونشرت رحلة ابن بطوطة كاملة فى باريس لأول مرة فى أربعة أجزاء فيما بين سنتى ١٨٥٣، ١٨٥٨م. ولا تزال هذه الطبعة الباريسية هى أهم طبعات رحلة ابن بطوطة حتى يومنا هذا، وقد أعيد طبعها أكثر من مرة.

وعن هذه الطبعة الباريسية طبعت الرحلة فى القاهرة طبعتين عربيتين كل منهما فى مجلدين؛ وظهرت الطبعة الأولى فيما بين عامى ١٨٧١، ١٨٧٥م أى بعد نحو عشرين سنة من ظهور الطبعة الفرنسية، ثم ظهرت الطبعة الأخرى فى سنة ١٩٠٤. ومن أسف أن الذين نشروا الطبعتين العربيتين لم يحفلوا بالحواشى والتعليقات التى كتبها العالمان الفرنسيان، ولم يفكروا فى نقل المقدمة الوافية التى صدرا بها الكتاب، واكتفوا بنشر النص العربى دون حاشية أو تعليق.

وكان لظهور الجزء الأول من الطبعة الباريسية فى سنة ١٨٥٣ صداه فى الأوساط العلمية، مما أثار أهتمام العالم الفرنسى ارنيست رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) فكتب عن ابن بطوطة ورحلته دراسة قيمة. وبدأ يعنى بالرحلة كثير من الكتاب، يدرسونها ويترجمون أجزاء منها إلى مختلف اللغات ومنهم كولى Cooley وديفك Devic وديلافوس Delafosse وفيران Ferrand ويول Yule وكورديه Cordier وكان الأتراك من أسبق الناس اهتماماً بهذا الأمر، إذ كانت بلادهم مما اهتم به ابن بطوطة فى رحلته، وبدأ هذا الاهتمام بمجرد ظهور الطبعة الباريسية كاملة، ومن ثم شرعت صحيفة «تقويم وقايع» تنشر الرحلة فى فصول مسلسلة منذ سنة ١٨٦١، ثم ظهرت ترجمة تركية كاملة للرحلة فى ثلاثة مجلدات من وضع الداماد محمد شريف فيما بين سنتى ١٨٩٧، ١٩٠١.

وفى سنة ١٩١٢ نشر مزيك الجزء الخاص بالهند والصين فى همبرج مترجما إلى الألمانية. وفى سنة ١٩٢٧ أخرج الأستاذ فؤاد افرام البستانى فى بيروت مختارات من الرحلة فى ثلاثة كتيبات. وكان الأستاذ هـ. جب H. Gibb ممن اهتموا برحلة ابن بطوطة فنشر فى

لندن سنة ١٩٢٩ مختصراً لها بالإنجليزية مزوداً بكثير من الحواشي العلمية الضرورية، وذكر في مقدمته التحليلية الوافية أنه يزمع ترجمة الرحلة كاملة، وقد صدق وعده فشرع منذ سنة ١٩٥٨ يترجم الرحلة معتمداً على طبعة ديفريمري وسانجنتي الباريسية، ونشر منها حتى الآن جزأين مزودين بالحواشي والخرائط وبعض الصور.

وفي سنة ١٩٣٤ نشرت وزارة (المعارف) المصرية مختارات من الرحلة تحت عنوان «مهذب رحلة ابن بطوطة» قام على تهذيبه وضبط غريبه وأعلامه اثنان من كبار رجالها هما الأستاذ أحمد العوامري والأستاذ محمد أحمد جاد المولى ولم يهتم الرجلان بأكثر من ضبط الأعلام وشرح بعض الألفاظ، ولكنهما أضافا إلى طبعتهما بعض الخرائط الجيدة التي رسمها وحققها الشيخ محمد فخر الدين مدرس الجغرافية في كلية دار العلوم. وقد ظل مهذب رحلة ابن بطوطة لعدة سنوات من كتب المطالعة المقررة على طلبة المدارس الثانوية.

وكان آخر ما ظهر من ترجمات رحلة ابن بطوطة ترجمة مجرية نشرها ايفان هريك في براغ سنة ١٩٦١

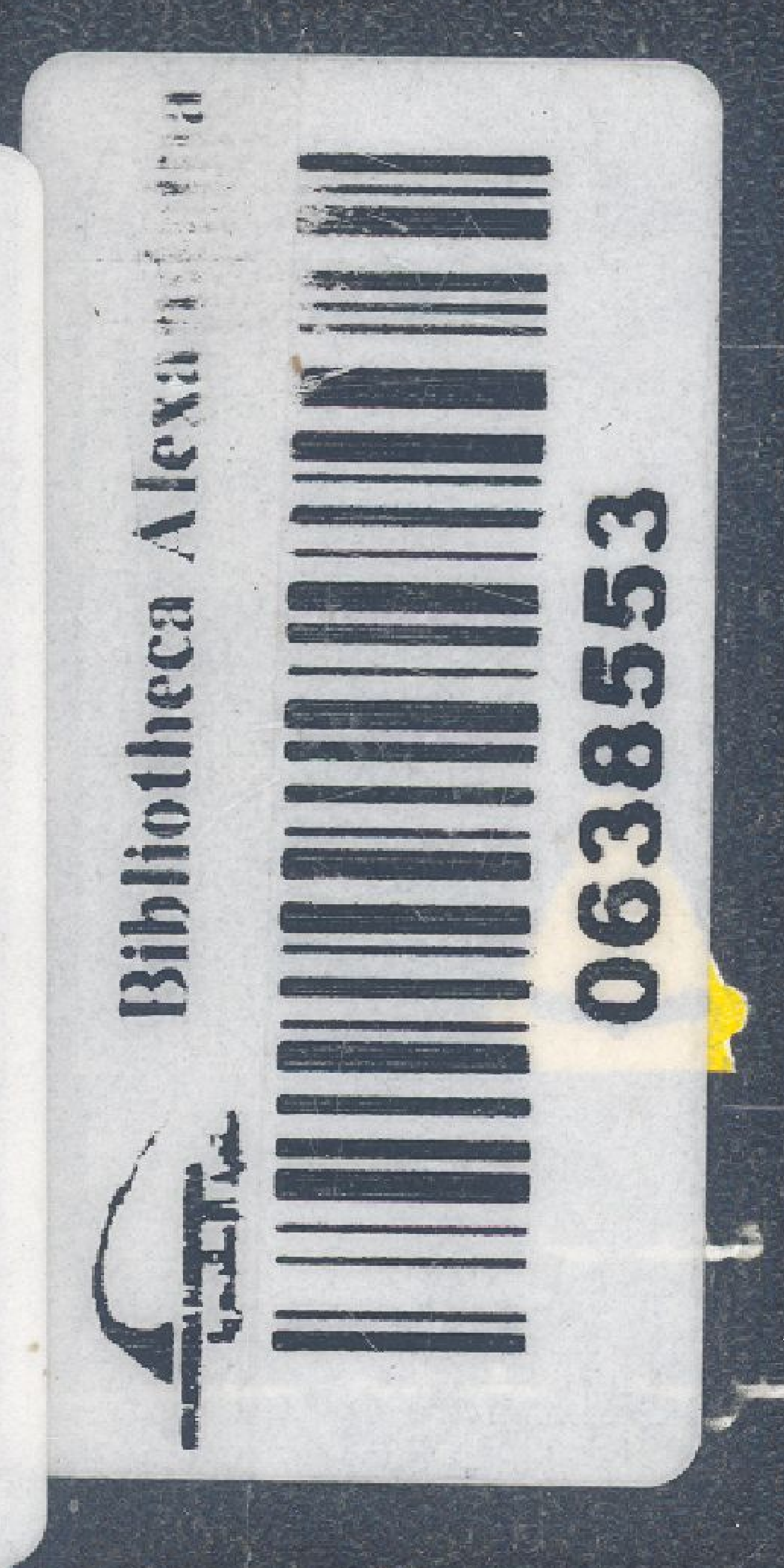
وأخرى إيطالية نشرها جبرييلى فى فلورنسا فى نفس السنة.

وإذا كان هذا هو اهتمام الأجانب برحلة ابن بطوطه، فإن من حقنا أن نهيب بالمسئولين عن حماية تراثنا العربي ونشره أن يوجهوا عنايتهم إلى هذه الرحلة، وأن تظهر فى القريب طبعة عربية جديدة محققة مشروحة فنحن أولى الناس بهذا العمل، وأظننا فى نهضتنا الفكرية الحاضرة من أقدرهم عليه.

رقم الايداع بدار الكتب ٥١٢٠/١٩٩٤

I.S.B.N 977-01-3896-7

مكتبة الأسرة





بسعر رمزى عشرة قروش

بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤ الهيئة المصر